قراءة مفتاحية في رواية (ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقة

عكاشة شايف

جامعة تلمسان

«الأرض... المرأة: على هذين المحورين بنيت هذه القصة الشيقة التي تناولت أبطالا عديدين، فحلّلت نفسياتهم تحليلا عميقا حتى جعلت منهم رموزا لطائفات تتصارع في كل مجتمع يسعى إلى تحطيم الأغلال لبناء مجتمع نام جديد.

فنفيسة الطالبة الثائرة على الأوضاع وأبوها الاقطاعي الانتهازي وشيخ المجلس الشعبي البلدي أحد أبطال الثورة الداعي إلى الاصلاح الزراعي وصانعة الفخار التي تحاول أن ترسم وقائع الثورة على فخارها... كلهم أناس نعرفهم ونراهم في كل قرية من القرى الجزائرية».

ذلك هو الملخص الذي وضعه الناشر على غلاف الرواية(1) وإذا كان الناشر عمد إلى هذا الملخص قصد تقديم نبذة موجزة عما يعتمل في باطن الرواية، بحيث هو يشارك الأديب الذي يضع العنوان لعمله الأدبي، فاني أحذر القارئ من محاولة الاكتفاء بعنوان الرواية أو بالمخلصات التي كثيرا ما تقدم لها وأن الملخصات وعناوين الأعمال الأدبية كثيرا ما تخون العمل الأدبي، بل هي كثيرا ما تكون إشارات ضالة أو خاطئة على طريق فهم العمل الأدبي بحيث هي قد توجه المتلقي في اتجاه بعيد عن الاتجاه السليم.

وعلى العموم إن هذا الملخص لأحداث الرواية يبقى مجرد لافتة ضوئية بسيطة، شأنها في ذلك شأن اللافتة التي توضع عادة على بداية الطريق لتشير إلى المدينة التي لا تزال بعيدة.

فالمسافة التي تفصل بين الملخص والعمل الأدبي كالمسافة التي تفصل بين بداية الطريق الطويل والمدينة البعيدة. فهل وصل - يوما - مسافر ظلّ واقفا على قارعة الطريق يتمعن في اللافتة التي تشير إلى المسافة الطويلة التي لا تزال تفصله عن نقطة الوصول؟.

ومهما يكن فإن هذا الملخص هو موجز أحداث هذه الرواية كما تصورها فصولها السبعة. ولكن ما يشتم من خلف هذه الأحداث المباشرة يبقى أشدّ تعقيدا مما يمكن استخلاصه منها. ولعل بعض هذا سيتجلى في ضوء القراءة الأولية التي سنحاول بواسطتها فتح بعض المنافذ على معالم هذه الرواية.

---

(1) - ريح الجنوب، عبد الحميد بن هدوقة، ش.و.ن.ت/ ط.4 الجزائر.

إن أبرز ما يصدم الملتقى عند مواجهته لأحداث هذه الرواية هو ذلك الصراع العنيد بين مخلفات الماضي ومستجدات الحاضر بين قيم عريقة وقيم جديدة، بين أنماط حياتية تقليدية ريفية وأنماط حياتية عصرية مدنية...

تبدأ الرواية بحوار جدلي طويل بين الطالبة (نفيسة) والأم (خيرة) والعجوز رحمة، يدور كله حول محاولة اقناع كل طرف للآخر بالعدول عن قيمه: فالأم والعجوز رحمة تصران على ضرورة احترام التقاليد الموروثة عن الأسلاف، والتي تخص مكانة المرأة ووظيفتها في الحياة، أما نفيسة فهي تصرّ على رفض هذه التقاليد ومحاولة تنصلّها من القيود العرفية الخاصة بوضعية المرأة في المجتمع الريفي. لقد طالعت نفيسة قصصا كثيرة، صورت لها الوضعية المزرية للمرأة العربية (202) فأحبت أن تثور.. ثم ثارت ولكن... ؟

فقد تردّدت في الرواية مواقف كثيرة تؤكد هذه المقولة، كان من بينها ما جاء على لسان نفيسة وهي تتبرم من حظها التعس، الذي جعلها أنثى (203) تقول: «... هذه المرأة التي في الارث لها نصف حظ الرجل، وفي الحياة لا حظ لها معه مطلقا. فهو أبدا السيد ... وهي التي لها حرية الخروج إلا ثلاث مرات في عمرها، الأولى من بطن أمها والثانية خروجها إلى دار زوجها والثالثة إلى قبرها ..»(202).

بل إن مكانة المرأة - فيما ترى نفيسة - قد بلغت من الحضيض مبلغا يرى له فقد صار الرجل - في هذه المنطقة الريفية يستحي أن ينطق باسم زوجته أمام غيره، وإذا تطلب الأمر أن ينطق باسمها فإنه يسارع إلى أردافه بقوله: (حشاك) (203).

وعلى الرغم من أن كل أحداث هذه الرواية جاءت لتصبّ في قضية المرأة، ومن هذه القضية تمثل المركز البؤري الذي تدور حوله المحاور الأخرى، فإن القارئ يلاحظ أيضا، بصيصا آخر يحاول في كل مرة أن يطفو على بساط أحداث هذه الرواية ولكن سطوع أشعة قضايا المرأة جعله يبقى خافتا، انه بصيص الأمل الذي تخلل أحداث الصراع في حشمة، وتمثل فيما يمكن تسميته (قصة الناي)، بأنغامه وايحاته المتكررة عبر مساحات فصول الرواية كلها.

إن ما يعرف عن أصوات الناي أنها قد ارتبطت بالريفي أو الخلاء حيث الأفق المفتوح لا تصده الحواجز ولا تعكر صفوه الصخوب. وللناي صوت عذب لا يكاد يسمعه الانسان حتى يستلذه، ويتوقف ليستمع إليه، أما في المدينة فإن صوت الناي يختلط بصوت صفارات السيارات وزئيرها ولا يمكن للإنسان أن يميز بين صوت الناي وبقية الأصوات، ومن ثَم فإنه لا يتوقف ولا يولي أية أهمية لما يسمعه، ممّا يجعل الناي يبقى منطلقا في انسيابه فلا يعترض سبيله معترض.

وفي المقابل كانت المرأة في الريف هي الناي، فهي إذا ظهرت تصدى لها الناس بكل جوارحهم لأن ما يحجبها عندهم شفاف، أما في المدينة فإنها تذوب في غليان المارة، فلا تجد من ينظر إليها ولا من يعيرها اهتماما، إنها تتحول من الناي إلى صخب، والصخب كريح الجنوب (أو القبلي) يزعج الناس وينفّرهم منه.

وهكذا فإن هذه المقارنة تجعلنا نفهم سرّ ورود قصة الناي وتكرارها في أحداث الرواية، تقول العجوز (رحمة) أن أنغام الناي «تتحدى الحر والغيوم» وأنه لولا الناي لظّن الناس أن القرية خلت من سكانها منذ سنين (26).

فما سرّ هذا الناي الذي يتصدى لريح الجنوب، ويتحدى كل عوامل الخراب التي تحل بالقرية؟

إنه بلا شك صوت، ولكنه ليس كأصوات الأموات الذين تتردّد عليهم نساء القرية كل جمعة (23-24) ولا هو كأصوات الشهداء الذين أزمعت سلطات القرية على إعادة دفن رفاتهم في مقبرة خاصة (41) إنه صوت الوجود الذي بعث الحياة في الصمت الكئيب المخيم على القرية (43) منذ أمد بعيد.

لم يكن صاحب الناي سوى الراعي (رابح) ابن البكماء ولكنه كان في خيال نفيسة، أميرا يتبختر بين قطيعه (13-14).

إن صاحب الناي أمير في هذه البقعة الخالية، وصاحب (نفيسة) أو أبوها هو أيضا أمير في هذه القرية الفقيرة، يتحكم (رابح) الراعي في قطيعه ويعزف له الألحان التي يريدها، ويوصلها إلى حيث يشاء دون أن يحجبها حاجب، كما يتحكم (عابد بن القاضي) في بنته (نفيسة) ويزّوجها لمن يشاء ولكن وضعية الناي تختلف في المدينة عن وضعيته في القرية، كما تختلف وضعية (نفيسة) في المدينة عما هي عليه في قريتها.

إن ضجيج المدينة يفقد صاحب الناي سيطرته على أنغامه فتخرج عن طواعيته، كما أن حياة المدينة تفرض على (عابد بن القاضي) أن يترك لـ (نفيسة) حريتها في الخروج إلى الحياة....

وهكذا نخرج بمعادلة بسيطة تتمثل في أن: امتلاك (رابح) الراعي للناس يعادل امتلاك (عابد بن القاضي) لنفيسة.

ولكن ما يلفت الانتباه، أننا لو عكسنا عناصر المعادلة، كأن نضع الناي في فم عابد بن القاضي ونجعل نفيسة في بيت رابح الراعي (وهو بالفعل، ما حصل في الرواية، حيث شاءت أقدار الرواية أن تصبح نفيسة في بيت رابح الراعي، وتكون

مهمة عابد بن القاضي الترويج واشاعة أخبار زواج بنته بمالك) - فإننا سنجد المعادلة تأخذ حلا آخرا، وتصبح قابلة للاختزال، حيث يتّم القضاء على الراعي وعابد بن القاضي، ويبقى الناي ونفيسة طليقين، وهو - فيما يبدو - الحل الذي كان يريد الكاتب أن يصل إليه من خلال القاعدة التي آمن بها عابد بن القاضي وهي أن «الأبناء حلّ» (48) لكل المشاكل.

شاعت المفارقة أن ينجو عابد بن القاضي بفضل القاعدة (الأبناء هو الحل) فقد كانت نفيسة «هي الحل ... كما كانت من قبل بنته زليخة هي الحلّ.. وكما كان ابنه الذي قتل أثناء غارة جوية هو الحلّ» (48).

لقد قدم عابد بن القاضي ولده وبنته زليخة قربانا أو فدية في أيام الثورة مقابل احتفاظه بأمواله، وقد تّم في عهد ما بعد الثورة تقديم نفيسة عربونا لشراء تنازل الاصلاح الزراعي عن تأميم ممتلكاته.

هل نجح عابد بن القاضي الانتهازي في تطبيق قاعدته، الأبناء هم الحلّ؟

إن الرواية تؤكد فشله، لقد فقد الأبناء وبقي الحلّ في حاجة إلى حلّ.

ذلك هو ما أوصلتنا إليه أحداث الرواية، ولكن ما بقي مغمورا يحتاج إلى شيء آخر من التمعن هو ما يمكن التعبير عنه بالتساؤل التالي:

ما علاقة ريح الجنوب بأحداث الرواية؟

لو تمعنا في المهمة التي جعلت بن مالك عدوّا صديقا لعابد بن القاضي (29، 33، 47) وربطناها بمهمة ريح الجنوب - التي تسبّبت في خراب القرية (192) - لا نكشفت خيوط الجواب.

لقد هبت ريح الثورة فأقلقت عابد بن القاضي الاقطاعي، وسارع حين ذاك إلى التستر بمالك المجاهد، وها هي الريح تهّب من جديد في عهد الحرية، ولكن عابد بن القاضي لم يغير من سياسته الانتهازية، فقد لجأ إلى الحيلة نفسها، وهو ما جعله يفشل في تحقيق غايته.

كان مالك جنديا يحارب العدوّ الغاصب وأصبح شيخ بلدية يشرف على البناء والتشييد، وفرق بين محاربة العدوّ وخدمة الصديق في عرف مالك، ولكن هذه القاعدة تبقى - في عرف عابد بن القاضي - معكوسة، لأنها تهبّ في غير صالح المصالح الخاصة، فهي كريح الجنوب تنشر غبارها على الطالح والصالح معا، وتجعل القرية خاوية على عروشها (75).

إن نقاط الربط بين مالك وريح الجنوب تكمن في أن كليهما يهبّ من خارج، فالريح تأتي من خارج المكان وهو الجنوب، وجاء مالك من خارج الزمان، زمن الثورة التحريرية وهذا كله جعل عابد بن القاضي يعاني من القيود الخارجية. ومن ثمّ فإن موقفه لا يختلف - إلا من حيث النوعية - عن موقف نفيسة ممّا يحيط بها من قيود ولكي يتخلص عابد بن القاضي من عوامل التلف راح يضع أولاده في مهب الريح، حتى يصدّوها عنه، ولكن الريح كانت أقوى من الأولاد، ففشلت نظريته، وبقي وحيدا في مهبّ الريح، تقذف به يمينا وشمالا إلى أن خرّ ميتا، واستمرت الريح ...

وهكذا إذا جمعنا أهمّ عنصرين في أحداث هذه الرواية وهما: انتهازية عابد بن القاضي وعناد الطالبة نفيسة، وسلطنا عليهما ريح الجنوب، فإننا سنحصل على مخلفات، تبدو غير متوقعة وإن كانت تبقى في ميزان منطق الأحداث داخلة في إطار ما يمكن أن يكون، إن الريح بما تحمله من زوابع رملية تقضي عادة على كل ما هو بدون أساس متين، وتكسر أو تلوي عنق كل ما هو عنيد متطاول.

وقد وقع هذا بالفعل، إذ فشلت كل محاولات عابد بن القاضي (القائمة على الانتهاز لا على الاخلاص والحق)، كما انهار اصرار نفيسة وعنادها، وبقيت الريح تزمجر في الأفق معلنة حتمية انتصار الحق على الباطل.

أما مالك فقد نجح، لأنه اعتمد على أسس ثابتة، آمن بها وعمل على تحقيق نتائجها. فكان هو الريح والريح هي مالك وهو فيما يبدو لي ما أرادت هذ ه الرواية أن تقوله.